الدلالة الرمزية في توقيعات الديوان الفاطمي

الدكتور زمان عطا نجم

المقدمة

التوقيع ((هو الكتابة على الرقاع و القصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث عن المظالم , وهو أمر جليل و منصب حفيل , إذ هو سبيل الإطلاق و الوصول و القطع و الولاية و العزل))[١] , و الدكتور شوقي ضيف قال هي ((عبارات موجزة بليغة تعود ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدّم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم))[٢]

وكما نعلم إن التوقيعات فن من فنون النثر كان ازدهارها من العصور الأولى من بزوغ فجر العصر العباسي الأول, إذ حاكى خلفاء بني العباس ووزرائهم ملوك الفرس ووزرائهم في هذا الصنيع [٣]ويتميز هذا النوع من الفنون بالإيجاز , والبلاغة , و الدقة و الوضوح , و البعد عن الغموض مما أعطى معانيها قدراً كبيراً من البساطة وعدم الإيهام والعصر الفاطمي كغيره من العصور الإسلامية ظهر فيه فن التوقيعات وازدهر , حتى وظفه الخلفاء في الرد على المكاتبات, والعقود والشكايات , وتولية المناصب و الوزارات , ومن مثل ذلك توقيع الخليفة الفاطمي (القائم بأمر الله) حين سمع صراخاً عالياً وبكاءَ , فكتب إلى جوذر توقيعاً جاء فيه ((يا جوذر سألنا عن البكاء فقيل انه في دار مسلم عفا الله عن المسكين , و أعلموني انهم بكوا له على الطريق , وهذا ما لا يصح أن يكون على احد من الناس من البكاء على أمير المؤمنين ومولى الخلق اجمعين صلوات الله عليه وبركاته على تلك النفس الطاهرة الزكية فعزِّ ولده المسكين وعياله , ومرهم برفع البكاء غدا إن شاء الله))[٤], ومثله توقيع الخليفة الفاطمي (المعز) على حاجة تقدم بها عامله جوذر يسترحمه ويتضرع إليه ((اسأل الله ياجوذر إن يهبنا عافيتك ,ويكشف ضرك حتى تشاهد معنا ما كنت تأمله بفضل الله , وحاجتك تصل إليك من رضانا باجزله مقرونا بالعظيم من حبائه وطب نفسا , فأنت والله على خير وأمن بفضل الله وسعة رحمته))[٥].وتوقيع الخليفة على الطلب المقدم من قبل جوذر في حاجته إلى حصر رفيعة لفرش الموضع الجديد من القصر ((استعملها لنفسك من خير السامات , و أجود الصنعة من فضلنا , فما حرم الله عليك ذلك , و الحمد لله))[٦] لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التحليلي , وأدواتنا في ذلك التحليل, والتفسير , والمقارنة ,والاستقصاء, والاستنتاج .

المبحث الأول

الدلالة اللفظية:-

كتب جوذر حاجب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله رقعة عن نفسه مذكرا بالحاجة التي كان قد طلبها من الخليفة فأجابه الخليفة موقعا على ظهر الطلب : ((والله يا جوذر مازال لك من قلوبنا مكان الرأفة والرحمة دائما , وصل الله ذلك بنعمته العظيمة لمعرفتنا لموضعنا في نفسك قديماَ وحديثاَ , ونحن نأتي من حاجتك ما تحبه إن شاء الله)).[٧]

في هذا التوقيع ندرك أن الخليفة أشار إشارة واضحة في ترسيخ أمر القبول ,والقرب من صاحب الطلب, إذ أكده بالقسم (والله), وهذا هو التأكيد بعينه , ثم اردفه بالنداء المخصوص بالاسم (يا جوذر) , وهو نداء للبعيد , القريب من النفس , ثم قال : (ما زال), وهي إشارة إلى الاستمرار باتجاه مقر الرحمة , والرأفة من القلب ,إن توظيف كل هذه الإشارات ((والعوامل التواصلية تقوم على طبيعة استعمال اللغة في حديث معين ,فكل تواصل يرمي إلى تحقيق فعل معين إلاّ أنّ ذلك لا يعني وجود وظيفة لغوية واحدة في المرسلة الواحدة , فمن الممكن أن تجتمع عدّة وظائف في المقولة الواحدة))[٨] فقد عين المكان الذي يحلّ في صاحب الطلب دون الأماكن الأخرى وهذا كله قد أحاطه الله بآلائه , ورضاه , وكُنّا نحن السبب في هذا القضاء الحسن , والرضا من الله (لمعرفتنا لموضعنا من نفسك قديما وحديثا) , ثم ختم التوقيع بقوله (ونحن نأتي من حاجتك ما تحبه إن شاء الله) وهي إشارة إلى الرضا والقبول واستجابة مطلقة لطلب الحاجب , ومن الملاحظ على التوقيع هو توظيف الخليفة للضمير نحن الدال على الجمع لبيان عظمته , وسطوته , وقوة سلطانه , ثم ارتأى أن يوظف الفعل المضارع (نأتي) للدلالة على الاستمرار في القبول ,((فإن الدلائل والعلامات التي تتكون منها اللغة , لا توجد إلاّ بقدر ما يعترف بها , أي بقدر ما تتكرر وتتردد))[٩] , , ثم فوضّ الأمر في نهايته إلى الله جلّ وعلا .

وقد تجلت مثل هذه الإشارات في توقيع آخر كتبه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي على ظهر كتاب ورده من حاجبه جوذر يطلعه على أمور مدينة المهدية وصاحب خزائنه هناك , من اعتزامه على خزن الأزواد النافذة إليه فـــي مسجد عند دار الشبامة , فلما وقف على ذلك صعب عليه أن يستعمل المسجد مخزنا

فوقّع إليه : ((يا جوذر وهبك الله السلامة في دينيك ودنياك , وقفنا على ما ذكرته عن صافي, فاكتب إليه بأن لايقرب المساجد, ولا يخزن فيها , فما يقوم خير ذلك بشره , وفي تعظيم المساجد فضل كبير وأجر عظيم وفي الاستهانة بها ضد ذلك ,عافاك الله من الإثم برحمته إن شاء الله))[١٠]

إن إطلالة الدعاء في السطر الأول من التوقيع تشكل عين الرضا وبوابة لزرع الثقة في نفس حاجبه جوذر باتخاذ قرارات صائبة اتجاه رعيته , إن مساحة الرفض في هذا التوقيع تتشكل من لوحة عمادها تكرار النفي (لايقرب , لا يخزن) إن هذا التكرار يؤمن بقدسية المساجد وتعظيمها لما فيها من فضل كبير واجر عظيم , فقد شكل التكرار (لايقرب , لايخزن) ثنائية رمزية مثلت شعارا للرفض والتحذير ,((ولهذا يمكن القول بأن النواة السيمية هي انتظام اتباعي للسيمات))[١١] التي تحمل بعضا من توجهات الخليفة .

وكتب جوذر للخليفة كتابا مذكرا فيه بحاجة عنّت له في نفسه , فوقّع إليه الخليفة في ظهر الرقعة: - ((وسيلتك إلينا لأعظم الوسائل , وهو ما أطلعنا الله عليه من حميد نيتك وحسن طويتك , ولو لم يقبل سعيك ما مكن الله لك في صدور أوليائه ما مكن , ولا أطال مدتك في خدمتهم التي توجب لك مزيد الأجر , وما أبقاك إلى أيامنا إلا ليكمل لك السعادة في دينك ودنياك , ونحن نسعفك بما سألت فيه , فثق بالله ووعدنا , فإنا ننجزه عن قريب إن شاء الله))[١٢]

نستطيع القول : إنَ هذا التوقيع ,و من بدايته يشير إلى العلامة الواضحة والدلالة البينة في حسن تصرف المرسل ,((وهو ما جعل من اللغة الواصفة مجالاً لفضح مكون الحقيقة الدلالية للعلامة))[١٣] , إذ اتخذ أسلوبا رفيعا في مخاطبته الخليفة , مما أرسا دعائم الرضا والقبول في نفس المرسل إليه , وهو أسلوب يرغب فيه الخليفة, لذلك نعته بـ(أعظم الوسائل), وهي إشارة واضحة للإجابة والموافقة .

ونلحظ أيضا تكثيفا واضحا للعلامات, والرموز الدالة على المعاني المضمرة من خلال توظيف الخليفة مصطلحات عدة تحمل في وجدانها معان يفهمها المرسل ,(حميد نيتك , حسن طويتك) التي ترسخ في نفس المرسل الانشراح , والسرور فضلا عما هو موجود من إشارات واضحة على المكانة المرموقة التي يتمتع بها في نفس الخليفة,(يقبل سعيك , أمكن الله لك , أطال مدتك , أبقاك إلى أيامنا) هذه كلها إشارات تدل على مكانة المرسل المرموقة في الديوان الخليفي والمساحة السلطوية التي حظي بها المرسل دون غيره من الناس , ثم قال:(ونحن نسعفك)إشارة إلى إكمال الفضل بالموافقة وتعجيل التصريح لما طلب .

ومن التقنيات الدلالية الواردة في التوقيعات ما وجدناه في توقيع الخليفة الفاطمي على كتاب ورده من متولي البحر بالمهدية يذكر فيه انه وصل إليه, أن رجلا من أرباب البحر و المراكب يستعمل أذيته عند

الإمام وقذفه بالخيانة في شعير كان نفذ الأمر إليه بحمله إلى صقلية في مراكب التجار ألمعروفة لمعونة الغزاة و الأرجاف بخيانة متولي البحر فوقع الخليفة على ظهر الكتاب ((يا جوذر عرفه أنّا قد سمعنا ما ذكره في كتابه , ونحن نسمع منه ومن غيره , ولا ندفع من قول احد من الناس إلا ما دفعه الحق , ولا نقبل إلا ما صح وعرى من الشبهات , وعوائد الله عندنا جميلة مع الصبر و التأني , والمحل الذي أحللناه فيه وأهلناه له يحتاج إلى القيام المحمود و النية الخالصة , وهو اعلم بنفسه من جميع الخلق فإن علم خيرا فا ليَطُب نفسا , ويثق بالله ربنا , وإن علم غير ذلك فلا يخالجه الشك في أنّ الله يهتك أستار الظالمين ويطلعنا على عيوبهم , وما له عندنا مخافة إلّا أن يصح عليه ما يقول ابن وسيم وغيره, فمن أهل نفسه لغير ما أهلناه, فاللوم عليه لا علينا ,ففضلنا غير خفي بفضل الله علينا وعلى الأمة بنا,فمن شكر النعمة أدامها الله ,ومن كفرها سلبه الله ما أنعم به عليه منها , وإن أحب أن يصل إلينا إلى سوق الأحد فليفعل, مع أن كونه و أمثاله مع نصير إلى الرسم أصوب و أوفق إن شاء الله))[١٤]

من اللافت للانتباه في هذا التوقيع هو يقظة الخليفة وعلمه بأمور مملكته وأحوال رعيته , وتميَّز القول الصالح الذي يصب في مصلحة الرعية من غيره الذي يعد من الأراجيف التي لا تجد إذنا صاغية عند الخليفة , فقد تلمسنا إشارات عدة تصدر من نص هذا التوقيع , وقد كنا عنها بالمصطلحات , لا تقبل إلاّ ما صح , عوائد الله عندنا جميلة , مع الصبر, و التأني , القيام المحمود والنية الخالصة ((ليس الأمر كذالك بالنسبة للصور (السميو) دلالية, فالطابع الجمالي للدليل اللساني يقوم على النمط المرجعي لا الخطي وعندما يتلقى القارئ نصا يحتوي عدة مجازات فإنه يثير إما هذه العلاقة المرجعية أو تلك من العلاقات المحتملة))[١٥]

فهي جميعاً دلالات على مساحة العدل والإنصاف التي وفرها الخليفة لرعيته وعُمّاله على الأقاليم و أوكل من ورائهم الله جل وعلا رقيبا إذ قال: (إن الله يهتك أستار الظالمين , ويطلعنا على عيوبهم) و إن نِعَم الخليفة , وعطاياه مستمرة في رعيته ما داموا في شكر الله ونعمائه وهي إشارة, وتوجيه إلى حفظ نعمة الله , وشكره , لأنّ كفر نْعم الله مؤداها سلب النعمة إذ قال : (فمن شكر النعمة أدامها الله , ومن كفرها سلبه الله ما انعم به عليه منها).

وتستمر التدفقات الرمزية متكاملة متداخلة في توقيع الخليفة على كتاب ورده من نظيف الكاتب متولي بيت المال بالمهدية , يذكر ما وقع بينه وبين علوش السكّاك من المشاجرة على الطبع بسكة المهدية ,وما نسبوه إلى علوش في أمر العيار , وذكر نظيف أنّ علوش رغب في أن يختبر عليه العيار من الغلّة فوقع

الخليفة المعز لدين الله على ظهر الكتاب ببيان , وهو:- ((ياجوذر : هذا الذي ذكره في الاختبار عليه من الغلة محال , إذ هو يعرف ما يرفع في الغلة فليس يجعل على نفسه شاهدا منها , ولكن إنما يختبر عليه ما بأيدي الناس ففيها تقع المصانعة , لأن التاجر يرضى له أن يأخذ من الغلة على الجودة ويسامح في غير ذلك إذ الربح مشترك بينهما , فعرفه ذلك , وحذره من السقطة , واحدر بدرا إلى نفسك واسمع كلامه على ذلك , ثم عرفنا بما تقف عليه من قولهما إن شاء الله))[١٦]

في هذا التوقيع توظيف مكثف للإشارات والدلالات في الرد على الدعوة التي وصلت إلى الخليفة الفاطمي , لأنه في موضع دفع الشبهات بهذه الإشارات المكثفة المقنعة نحو (محال , شاهدا ,تختبر) هذه العلامات وثبات مضيئة في نص هذا التوقيع إذ بها يكون التوقيع اقرب إلى تحقيق غايته ,((لذلك إن تغيير الدال على مستوى الوسيلة قد يؤثر في المدلول أي المعنى الذي يفهمه القراء أمام ما يبدو انه المحتوى نفسه))[١٧] ثم استدرك الخليفة بأداة الحصر (لكن إنما) وهي إشارة ومحاولة إلى معرفة صدق الادعاء , وأن يجعل ما بأيدي التجار من النقود المسكوكة باتجاه استكشاف حقيقة الأمر و قرارا تقع فيه المصانعة ؛ لأن الخليفة يدرك بأن التاجر يرضى له أن يأخذ من الغلة على الجودة ويسامح الربح مشترك بينهما , فعرفه ذلك وحذره من السقطة,وهي إشارة و دلاله واضحة على مقصد الخليفة((وهذا التدرج في الضرورة السيميائية هو الذي تقوم عليه العلاقات المتبادلة بين العبارة والمضمون))[١٨] بان يجعل من التاجر قاضياَ عادلاَ بقبول الادعاء أو رفضه لأن التاجر يميز بين الغلة الجيدة وغير الجيدة لخبرته , وكثرة تعامله لهذه النقود , ثم واصل الخليفة الإشارة إذ قال:- وحذره السقطة , واحدر بدرا أي نبهه على ما ورد واعلمه أن الخليفة قد اطلع على الأمر فصن عملك واخلص فيه , ثم اترك له حرية الرد و الدفاع عن نفسه .

وكتب حاجب الخليفة المعز لدين الله عن نفسه رقعة يرغب فيها إسعافه فيما تقدمت رغبته فيه من حاجته ويسترحم في ذلك ويتضرع . فوقع إليه الخليفة بقوله :- ((ياجوذر , والله ما نسيناك ولكن تعاورتنا أشغال وفكر حالت بيننا وجميع ما تريده من ذلك , فو الله ما اخرج من بيتي إلا هربا منه لثقل ما يرد على النفس عند الخلوة , إذ لا معين إلاّ الله الواحد القهار , فاخرج لكي أستريح من بعض ما أجده , فما ازداد إلا تعبا ونصبا , والله ييسر لنا كل عسير , ويسهل كل مستصعب , و الذي رغبت فيه تناله على ما تحب بحول الله وقوته إن شاء الله))[١٩]

تتميز الدلالة في هذا التوقيع بحضور مكثف , من خلاله ((تستطيع الوظائف السيميائية أن تضطلع بإضفاء الدلالة على الأشياء الغائبة عن الادراكات الحسية))[٢٠] ففي إطلالته إشارة واضحة ودلالة بيّنة على قوة العلاقة , ومتانتها بين الخليفة وحاجبه مما دفع بالخليفة إلى القسم (والله مانسيناك) فأوعز السبب في ذلك إلى انشغاله بأمر ما سيطر على مقدرات تفكيره , وهي دلالة واضحة على تفاعل الخليفة مع ما تريده المملكة من اهتمام ورعاية , فلجأ إلى القسم (فو الله ما اخرج من بيتي إلاّ هربا ...).وهي محاولة منه في دفع الشبهات التي قد تتبادر إلى ذهن صاحب الطلب .

إن تكرار القسم يشير إلى جسامة الأمر الذي شغل فكر الخليفة وسيطر على مقدراته ؛ لذا فأننا نرى أن هذا التكثيف في الإشارة التي تضمنها التوقيع يعد من الأسرار التي يحاول الخليفة أن يفصح بها لحاجبه .

ووقع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي على كتاب رفع له تضمن أمر هدية مجموعة من الجمال زهاء عشرين بعيرا , فوقع على الكتاب ودفعه إلى الحاجب يقول فيه :- ((يا جوذر أسعدك الله , ما رأينا في كل ما ذكرته إلاّ خيرا , فاعمل به , فلازلت في أيامنا عزيزا رفيعا تجازى من تشاء بالنفيس من فضل الله وفضلنا عندك . فالسماحة طبع من فضل النفس وعلو الهمّة .وكثير من تعظم نعمته وتصغر همّته , فلا ينتفع بكثير النعمة عند صغير الهمة . والله عزّ وجل لم يزل يعرفك البركة في كل ما تصرفت به , ولا يزال إن شاء الله))[٢١]

من اللافت للنظر إن هذا التوقيع قد افتتح بالدعاء إذ جعل منه مصطلحا إجرائيا ناجحا في مقاربة النص والولوج إلى ((مستوى الحوار الداخلي الذي بواسطته تتجلى كل أبعاد النص الجمالية , و الإقناعية والذاتية ضمن شبكة من العلاقات))[٢٢] وهو دليل الرضا ,والقبول, الارتياح ؛ لذا فقد وصف الخليفة طلب الحاجب بالخير , إذ قال : (ما رأينا في كل ما ذكرته إلاّ خيرا) فعدّها الخليفة من النعم التي يشكر عليها من تقدّم بها , ثم اخذ القبول ينحى منحا آخر وهو الاطمئنان النفسي الذي ينشده الحاجب ليزداد قربا من الخليفة الذي بات يؤكد مكانة الحاجب الرفيعة , واللائقة في الديوان الخليفي لان العملية تتكون من مراحل تترتب وفق تسلسل منطقي يتكون من إيجاد الحجج ثم ترتيب هذه الحجج وفق نظام يتبنى الإقناع وبعدها يكون إخراج المحصلة النهائية[٢٣]إذْ قال : (فلا زلت في أيامنا عزيزا رفيعا تجازي من تشاء بالنفيس من فضل الله وفضلنا عندك) , وعلل هذا التودد لسماحته , وكرمه بالطبع , وليس بالتصنع لأن نفسه تواقة للكرم , والبذل , ورعاية الآخر , ولأن بعضهم تعظم نعمته فتصغر همّته لطبع به يمنعه من أن يشكر نعم الله .

المبحث الثاني

الدلالة المعنوية:-

وكتب جوذر رقعة يسأل فيها عن تأخر الخليفة عن الخروج إلى صلاة الجمعة التي اعتاد أن يخرج كل جمعة من شهر رمضان , وكان الحرّ شديداً , فأحبَّ التطلع إلى علم ذلك , فكتب رقعةً يصف فيها ما هو عليه من القلق , والتخوف , ويسأل عن الحال .

فرجع الجواب اليه : ((يا جوذر صانك الله , وقفنا على رقعتك وما ذكرته فيها من شغل ضميرك ,فليس إلاّ خير , والحمد لله , ونحن نسأل أن يشهدنا هذا الشهر العظيم بحال يرضاه بعز أوليائه , و وقم أعدائه وأدالته للحق من الباطل ؛ إنه لا يخلف الميعاد . والذي أخر بنا عن الخروج اليوم , فهذا الحر العظيم يذكر ذوي الغفلة بحر جهنَّم التي هي دار الفاسقين . أسأل الله لنا ولأوليائنا المتقربين إلى الله بطاعتنا العصمة والنجاة من عذابه ونيل المرغوب فيه من رحمته ونعيم جنته , إنه الجواد ا لوهّاب))[٢٤].إن المتمعن في هذا التوقيع يجده قد جاء مكثفاً بالإشارات , والإيماءات مع إيجازه وعمق دلالته , فقد كانت إجابة الخليفة على سؤال الحاجب في بداية التوقيع بالفظ (خيراً), وهو لفظ يحمل من دلالات السرور , والنعيم , والانشراح , والحمد لرب العالمين على ما انعم عليه , ويطلب المزيد من الغفران , والتوفيق , والعز , ويرجو الله أن يذل أعدائه ويقهرهم إذ وظف لهذا الأمر الدعاء (وقم أعدائه) , ثم علل سبب تأخره عن الخروج إلى الصلاة هو الحر الشديد الذي حال بينه وبين خروجه , ثم ختم توقيعه بالدعاء إلى أوليائه المقربين , ويسأل الله لهم النجاة ونيل المطالب . من اللافت للنظر على هذا التوقيع إن جمله القصيرة دلّت على معان عميقة ,تفصح عن زهد وعمق في الإيمان , ورغبة شديدة ,واشتياق إلى نعيم الجنة ((وزيادة على ذلك فإنه يضم مكونا تداوليا يسمح بمعالجة التنوعات التي أنتجها النموذج الإنزياحي ,بطريقة مختلفة وتبعا لمقصديتها))[٢٥] إذ وظف السيميائية توظيفاً موفقاً جعل منها طوعا لمعانيه , وتحقيقا لمقصده .

ومن توقيعات الخليفة المعز لدين الله ما جاء في الرقعة التي كتبها إلى حاجبه يأمره أن يستمر بالعطاء إلى أهل احد عماله على الولاية يدعى(نظيف)إذْ توفاه الله واخلفه ولداً له , وكان طفلا فكتب له الخليفة رقعة جاء فيها : ((يحفظ ولد نظيف لوالده , لو لم يربَّ الصغير لم ينتفع به كبيراً وللتربية موضع ليس مثله بموجود عند كبير قد كُسي وجبر يرى أن الحاجة دعت إليه لا كمن يرى أنه رشح للخير وأعين عليه من قبل أن يصلح لما أهل له , فاحفظ ونبه تنتبه به إن شاء الله))[٢٦]

وظف الخليفة الدلالة , والرمز في المقطع الأول للتوقيع و بشكل لافت للنظر إذْ قال : (يحفظ ولد نظيف لوالده) , وهي دلالة على استمرار العطاء , ووجوب الحقوق كاملة غير مجذوذة إلى ابن الكاتب نظيف , فقد كان نعم الخلف لخير السلف ؛معللاً أمره بوجوب رعية الصغير وحفظ حقوقه , وإعانته على أمر دنياه , كما أولى الخليفة اهتماما استثنائيا للتربية ودورها الفاعل في صناعة الأجيال , إذْ اقرن السبب ووجوده بالنتيجة المنبثقة من أداة امتناع لامتناع (لو) وأداة الجزم (لم), ((إن هذا النموذج يأخذ شكل عملية مسلسلة الحلقات فهو لا يمثل النص كوحدة ساكنة مغلقة ,بل يتبع عملية تكون سائرا من تولد الفكرة إلى تحققها التام))[٢٧] لأن النص يعد وحدة فعالة في تحقيق الغرض المقصود .

وردَّ الخليفة المعز لدين الله على رقعة وردت إليه من حاجبه جوذر , تتعلق بأمور المراكب , وحوائج البحر فوقع على ظهرها بقوله : ((يا جوذر, سلمك الله ,وقفنا على ما ذكرته في رقعتك هذه , لا , والله , ما حالك عندنا حال من يستثقل , بل نرغب إلى الله ونسأله أن يجعل فيمن يصحبنا كثيرا مثلك , وما نرى كل ما يجيء منك إلاّ كما يكون من الإنسان لنفسه , فلا تتوهم غير هذا , واشكر الله على ما خولك من ذلك . وأما أشغالنا فهي تتأكد بضروب , وكلما رجونا أن يرزقنا الله عليها معينا عظم شغلنا بعدم المعين . وكان ذلك علينا لا لنا , فكفانا الله شر من لا يعرف قدر النعمة وبلغنا الأمل فيمن نرجوه للمعونة إن شاء الله))[٢٨].

إن المتمعن في هذا التوقيع ,لا تخفى عليه الملامح الدلالية التي ألقت بظلالها على كل فقرة من فقرات التوقيع ابتداءً من المطلع , فقد كان الخليفة مشفقاً على المرسل , ومتعاطفاً معه إلى مستوى يتمنى فيه الخليفة أن يكون رفاقه وصحبه بمستوى أخلاق المرسل, وكياسته, إذ ((أن جميع العوامل التواصلية تساهم في إظهار الأسلوب : المرسل والمتلقي , والسنن والعلاقة مع الواقع , وقناة الإرسال))[٢٩] لذا فقد ارتأى أن يطلب من المرسل أن لا يخامره الشك خلاف ما يظنه الخليفة , وما أضمر لشخصه من الحب , والقرب .

وكتب جوذر الخليفة المعز لدين الله رقعة يذكر فيها سؤال محمد الكاتب لولده جعفر في ضيعة يرتفق بها , فرجع إليه الجواب وهو : ((وقفنا على رقعتك , ومحل محمد مثله ممن صدقت نيته وقدمت في الجميل صحبته , ونحن نحب أن يسبغ الله نعمة على من لم يعرفنا, فكيف من لا يُعرف إلاّ بنا . ونحن نسعف جعفرا لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله))[٣٠].

بعد أن وقف الخليفة على رقعة الحاجب جعل شعاره المساواة بين محمد الكاتب المقرب منه وبين رعيته , وهذه إشارة واضحة على نظرة الخليفة الواحدة لأهل مملكته جميعهم , وفي التوقيع إشارة إلى الروح الأبوية التي يضمرها الخليفة لأهل مملكته , الأقربين منهم , والأباعد , ومن يعر فهم , ومن لا يعرفهم و ثم أشارة إلى موافقته على طلب الحاجب بقوله : (ونحن نسعف جعفرا لسؤالك ما سأل فيه) .

من اللافت للنظر في هذا التوقيع هو أن جميع إشاراته جاءت مترادفة ومترابطة في سعيها لتحقيق الطلب . إذْ ((إنّ التأثير الذي ينبغي أن نوليه اهتمامنا هو الذي ينشأ عن علاقة العنصر اللغوي الذي يستخدمه المتكلم الذي يصنعه اللغوي بالعناصر اللغوية الأخرى ذات الصلة بالعنصر المستخدم أو الموصوف))[٣١] فتتعاضد جميعها في صياغة دلالية منتجة فعالة تلتف حولها صور النص الأدبي .

ورفع للخليفة أن وصفاء من الرقّامّين كانوا قد اسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام , فوقع الخليفة على الكتاب : ((يا جوذر أسعدك الله , أكتب إلى نصير بأن يقبض على هؤلاء المرتدين ويسجنهم ويضربهم ويشهد عليهم العدول , فإن رجعوا إلى الإسلام أشهد عليهم وأطلقهم , وإن أقاموا على النصرانية جدد الأعذار إليهم ولإنذار لهم مرات في أيام مختلفة فإن عادوا إلى غيهم أخرجهم وقطعهم إرباً إرباً على أعين الناس أجمعين ليكون شنعة لغيرهم , ويعرفهم في حين الإنذار في الأوقات الثلاثة أنهم إن أصروا كانت هذه عاقبتهم , ثم يكون العمل من بعد على ما ذكرنا ألا أن يتوبوا إن شاء الله))[٣٢]

إن الإشارات والعلامات قد ترادفت وتكاثفت في مطلع هذا التوقيع و أولها اللفظ (يقبض) , وهي دلالة على تقيد الحركة , وتحجيمها , ثم يضعهم بين أربعة جدران , أو في زنزانة , أو مكان لا يراهم فيه أحد , و أباح له عقابهم (يسجنهم و يضربهم) و ثم ألزمه بأن ذلك كله لا يكون له إلا بالشهود , والبينة , والدليل , ومع هذا كله وجدنا إن هناك إشارة توجب استعمال الرفق بإرشادهم , والصفح عنهم إن هم عادوا عن أمرهم (فإن رجعوا إلى الإسلام أشهد عليهم وأطلقهم), وإن أصروا على خلاف ذلك ,جدد الأعذار إليهم والإنذار لهم مرات ,إنّ ((هذه الكتلة من البناءات بصفتها حاملة لدلالة سميوطيقية يجب أن تقوم ((بافتراض سيميائي))الحدث السيميوطيقي للجماعة وكذلك وعيها الخاص , ملزمان بقبول إمكانية وجود بنيات تستطيع

أن تكون حاملة لدلالة هذه الخصائص تتحقق من خلال اللغة الطبيعية))[٣٣] وهي أشارة واضحة على سعة صدر الخليفة و علو إنسانيته و هو بهذا يرسم صورتين متناقضتين لمشهد واحد , الصورة الأولى تشير إلى الوجه الإيجابي للتعامل مع الآخر و الصورة الثانية تمثل الوجه السلبي الرافض للائتلاف مع الآخرين, إذا كانت الحرية مجرد القدرة على الانفلات من قهر السلطة بفعل التمازج بين الخضوع والسلطة . فلا مكان للحرية إلاّ خارج السلطة .

وكتب جوذر رقعة إلى الخليفة يذكر إن مركبه عطب ويسأله الإنعام عليه بأحد مركبين قد اشتريا للخليفة من الروم ليستعين به على حمل نقله في البحر إلى المشرق , فصرف إليه الجواب , وهو : ((يا جوذر سلمك الله , ما نحسب مالنا إلاّ مالك , فقد وهبك الله من رضانا وممازجة أنفسنا ما لو علمنا أن مالك ليس إلا ما في يديك من نعمتنا ما رضينا لك بأضعافها كما فعلنا ممن دونك , ولكنا نعلم إن مالك أكثر من أموالهم وجاهك أوسع من جاههم بما وهبك الله من رضانا الذي يكمله لك بنعيم الآخرة , فخذ أي المراكب شئت , بارك الله لك فيه وعرَّفك بركته . وحاجتك التي سألتها يصل إليك فقد حصل لك والله كل ما تحبه في دينك ودنياك بما مكنه الله لك عندنا فثق بالله , واشكر يزدك من فضله وإحسانه , ونحن نعجل نجاح طلبتك , إن شاء الله)[٣٤] .

مما يدعو إلى سرور المخاطب هو إن الخليفة قد افتتح التوقيع بالدعاء له إن يحفظه الله من كل شر وبلية , إذْ كان التضرع بالتسليم والموافقة على طلب المرسل بأن جعله شريكا في أمواله , وأنيسا لنفسه , فأغدق عليه بالنعم والبركات, و تفضيله على الآخرين من الرعية ثم يطلق له اختيار الهبة التي يراها مناسبة (خذ أي المراكب شئت , بارك الله لك فيه)وهي إشارة واضحة للرضا والموافقة والمكانة المرموقة التي يتمتع بها السائل ((إذا كانت العلامة من حيث هي تكافؤ , ومطابقة متماسكة مع مفهوم متحجر وإيديولوجي للموضوع , فإن العلامة من حيث هي مرحلة هي دائما موضوع نقاش من المسار السيميائي) إذْ أن العلامة هي الثيمة الرئيسة التي [35]وهي الأداة التي بواسطتها تتركب المواضيع وتتفكك باستمرار))(ترتكز عليها الدلالة التي ينتجها النص.

ومن جملة توقيعاته التوقيع الذي كتبة على ظهر الرقعة التي وردته من حاجبه جوذر يطلب فيها مرافقته في خروجه لطلب الثائر, ويعلمه إن القول قد كثر فيه من عامة الناس وأراجيفهما التي تتهمه باستخلافه على أفريقيا , وإن السعادة مقرونة بنظره إلى وجه أمير المؤمنين فأجابه الخليفة بقوله :- ((يا جوذر وقفنا على رقعتك هذه , هذا شيء يقوله الجهال من الناس , ومن لا يعلم ما نحن فيه , ولا والله ما

رأينا هذا فيك لوجوه أولها :أنا نحب أن لا ندخر عنك نعم الله عندنا وأن تكون مشاهدها . والثانية : أنك لست ممن نستثقله فيجب الراحة منه . والثالثة : كبر سنك في طاعة الله وطاعتنا. والرابعة أنك لا تجد من يصفو لك على ما تريد من فساد أطماع الناس وطباعهم الآن , فأنت لا تجد معينا ولا عضدا , ولا من يقوم بين يديك فضلا عن غير ذلك فلا تحدث نفسك بما يضعف قلبك , فو الله ما تركناك هاهنا إلا شفقة عليك, ورحمة لك ,ونحن نعلم أنك لو كنت غائبا عنا لمثل هذه الغاية لم تكن من الأحياء إلى اليوم , فطب نفسا , فلن تزايلنا حتى تقضى حجك وتزور قبر جدنا محمد صلى الله عليه بفضل الله علينا وعليك , فوحقك ما أملنا فيك في سرنا ألاّ كالذي ذكرنا وأزيد من الخير والجميل , ونحن نتوخى لأهل هذا الزمان من نرجوه لهم ويصلحوا له إلى أن نبلغ المراد ويرينا الله وجه الصواب , وليتنا نجد فيمن نتركه ههنا مثل نيتك وحدبك على دولتنا , والله يخير لنا ويختار بحوله وقوته إن شاء الله))[٣٦]

ينم هذا التوقيع عن مجموعة من الدلالات والإشارات الرمزية التي لخصها في قوله : (هذا الشيء يقوله الجهال من الناس) ثم فصَّل في الأمر تباعا فتمثلت الدلالة الأولى صورة ناصعة للسلطة الثانوية التي مثلها شخص حاجب الخليفة , وللحرية التي يتمتع بها داخل البلاط الخليفي , أما الدلالة الثانية فهي المساحة الواسعة والمرتبة المرموقة التي خصصها حضرة الخليفة لصاحبه المقرب جناب الحاجب , والدلالة الثالثة هي اعتراف صريح بالعرفان الذي يحتفظ به الخليفة لصاحبه الوفي , ومستودع أسرار البلاط , أما الدلالة الرابعة فقد كانت خلاصة رضا الخليفة , وثقته المطلقة بهذا الرجل الذي لا تأخذه بالحق لومة لائم , وإيمانه بصدق صاحبه , وأمانته وجديته في العمل .وحتى تكون الصورة كاملة بكل جزئياتها إرتآى الخليفة أن يوظف ظاهرة التبادل في الضمائر (نحن نعلم إنك لو كنت غائبا عنّا)سعيا منه في حفظ مكانة المخاطب في نفسه أو هي إشارة إلى المخاطب يدرك من خلالها مكانته الرفيعة في نفس الخليفة إن الدلالات التي وظفها الخليفة في هذا النص جميعها إشارات سيميائية , والواقع إن ما يهمنا من هذه الإشارات الدلالية هو العلاقة اللغوية ,إذ تعد اللغة أهم هذه الأنظمة ((بما توفره لنا اللغة من تصور للعالم ولا مجال لإسناد الدلالة إلى هذه الأشياء لو لم نلجأ إلى اللغة))[37] إضفاء روح المحبة والتسامح والرضا على شخص المرسل وترجمة دقيقة لإخلاصه في ولائه للخلافة.

الخاتمة

في ضوء ما استعرضناه من التوقيعات نلحظ إن كاتبها لا يلتزم الصنعة الفنية , فتوقيعاته اقرب إلى الكلام العادي الذي يتحدث به أمام الناس في الشؤون المختلفة مع سلامة أسلوبه وفصيح عباراته , والعلامة الفارقة في توقيعات الخليفة المعز لدين الله هي تميزها بالطول , مع اعتمادها في الرد على رسائل مكتوبة ترده من حاجبه جوذر , لذا فقد كانت أوامر واجبة التنفيذ , ورسائل عتاب يسعى كاتبها إلى رفع مكانة المرسل بين العامة , فهي إذن رسائل صادرة من الرئيس إلى المرؤوس.

تضمنت التوقيعات معرفة تامة بأمور الرعية , وشؤون الدولة , فقد جعلها الخليفة الفاطمي في مقدمة أولوياته إذْ كان لا يتأخر بالرد , فبمجرد قراءته للطلب يسارع إلى الرد عليه , لهذا نستطيع القول إن التوقيعات هي نمط من أنماط الأدب التي تميز بها الأدب الفاطمي .

Abstract

Through what Astardnah signatures note that the author does not abide by the technical workmanship, Vetoqaath closer to normal speech, which speaks of him in front of people in various affairs with the safety of his style and eloquent words, the distinguishing mark in signatures Caliph Muizz are apart lengthwise, with the adoption in reply to written messages he receives from his brow Jodhir, so it was enforceable, orders and letters of admonishment author seeks to raise the status

of the sender of the public, they are then issued letters from the President to the subordinate Signatures included a full knowledge of matters of the parish, and the affairs of the state, it has made the Fatimid Caliph at the forefront of his priorities as it was not to delay the answer, once the reading of the request is quick to respond to it, for this we can say.

الهوامش

[١] -صبح الاعشى، القلقشندي،١١٠:١.
[٢] - تأريخ الأدب العربي , العصر العباسي الأول , د. شوقي ضيف : ٤٨٩
[٣] - ينظر م,ن , ٤٨٩.
[٤] - سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الائمة الفاطميين, تصنيف أبي علي منصور ألعزيزي الجو ذري : ٤٣.
[٥] - م.ن , ٩٣.
[٦] - م.ن ,١٠٠ .
[٧] - م,ن , ٩٧.
[٨] - النظرية الالسنية عند رومان جاكبسون , دراسة ونصوص , فاطمة الطبال بركة :٦٨.
[٩] - درس السيميولوجيا, رولان بارت : ١٣ .
[١٠] - سيرة الاستاذ جوذر : ١٠٢ .
[١١] - مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية , جوزيف كورديس : ٧٨ .
[١٢] - سيرة الاستاذ جوذر :١٠٣ .
[١٣] - معالم السيميائيات العامة , اسسها ومفاهيمها , عبد القادر فهيم الشيباني : ٥٤.
[١٤] - سيرة الاستاذ جوذر : ٨٧.
[١٥] - البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص , هنريش بليت :١٠٤.
[١٦] - سيرة الاستاذ جوذر :٩١.
[١٧] - اسس السيميائية , دانيال تشاندلير: ١١٢.
[١٨] - السيميائية وفلسفة اللغة , امبرتو ايكو : ٩٥.
[١٩] - سيرة الاستاذ جوذر :٩٢.
[٢٠] - السيميائيات الواصفة , المنطق السيميائي وجبر العلامات , احمد يوسف : ٣٥.
[٢١] - سيرة الاستاذ جوذر: ٩٥.
[٢٢] - دينامية النص تنظير وانجاز, محمد مفتاح :١٠٢ .
[٢٣] - ينظر البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص :٣٤.
[٢٤] - سيرة الاستاذ جوذر :١١٣.
[٢٥] - البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ,٦٦.
[٢٦] - سيرة الاستاذ جوذر :١٩١-١٢٠.
[٢٧] - البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص :٣٣.
[٢٨] - سيرة الاستاذ جوذر:١٢٥.
[٢٩] - البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص :٦٢.

[٣٠] - سيرة الاستاذ جوذر : ١٢٦.
[٣١] - مدخل إلى اللسانيات , د. محمد محمد يونس علي :٦٦.
[٣٢] - سيرة الاستاذ جوذر: ١٢٦.
[٣٣] - سيمياء الكون , يوري لوتمان :٢٦
[٣٤] - سيرة الاستاذ جوذر :١٢٧.
[٣٥] - السيميائية وفلسفة اللغة ,امبرتو ايكو : ١١١.
[٣٦] - سيرة الاستاذ جوذر : ١٠٩ .
[٣٧] - دروس في السيميائيات , د. حنون مبارك :٧٥.

المصادر

ـ أسس السيميائية , دانيال تشاندلير , ترجمة د. طلال رهبة , مراجعة ميشال زكريا , توزيع مركز دراسات الوحدة العربية , ط١ , الحمراء بيروت لبنان ,٢٠٠٨.
ـ البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ,هنريش بليت , ترجمة وتقديم و تعليق د. محمد العمري, أفريقيا الشرق ,ط٢,–بيروت – لبنان ,١٩٩٩.
ـ السيميائية الواصفة , المنطق السيميائي وجبر العلامات , احمد يوسف , الدار العربية للعلوم – منشورات اختلاف , المركز الثقافي العربي , ط١ , ٢٠٠٥.
ـ السيميائية وفلسفة اللغة , إمبرتو إيكو , ترجمة ,د. احمد الصمعي , توزيع مركز دراسات الوحدة العربية , ط١, , بيروت - لبنان , ٢٠٠٥.
ـ النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون , دراسة ونصوص , فاطمة الطبال بركة , المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع , ط١ , بيروت , ١٩٩٣ .
ـ تأريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول :د. شوقي ضيف , دار المعارف , ط١٦ .

ـ درس السيميولوجيا : رولان بارت , ترجمة عبد السلام بن عبد العالي تقديم عبد الفتاح كليطو, دار توبقال للنشر , الدار البيضاء ,ط٣ المغرب ,١٩٩٣ .

ـ دروس في السيميائية , د. حنون مبارك , دار توبقال للنشر , ط١, , الدار البيضاء المغرب , ١٩٨٧.
ـ دينامية النص تنظير وانجاز , محمد مفتاح , المركز الثقافي العربي , ط٢ , ١٩٩٠ , بيروت لبنان .
ـ سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين,تصنيف أبي علي منصور ألعزيزي الجو ذري,تقديم وتحقيق الدكتور محمد كامل حسين و الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ,دار الفكر العربي.

ـ سيمياء الكون, يوري لوتمان , ترجمة : عبد المجيد التونسي , المركز الثقافي العربي, ط١ـ الدار البيضاء , المغرب , ٢٠١١.

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا , احمد بن علي القلقشندي, (٨٢١هـ)دار الكتب المصرية, القاهرة ١٩٢٢.
ـ مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية , جوزيف كورتيش , ترجمة , د. جمال حضري , الدار العربية للعلوم ناشرون , ط١ , , ردمك الجزائر , ٢٠٠٧.
ـ مدخل إلى اللسانيات , د. محمد محمد يونس , توزيع دار آوبا للطباعة والنشر والتوزيع و التنمية الثقافية , ط١, ليبيا ,٢٠٠٤ .
ـ معالم السيميائيات العامة , أسسها ومفاهيمها , عبد القادر فهيم الشيباني , ط١ , سيدي بالعباس الجزائر , ٢٠٠٨.